الصليب والصلب قبل الميلاد وبعده

الأب سامي حلاّق اليسوعيّ(*)

مقدّمة

إتّخذ المسيحيّون الصليب رمزًا لهم منذ القرن الرابع الميلاديّ حتّى أيّامنا. فهم يضعونه في بيوتهم وكنائسهم وأماكن عملهم، ويعلّقونه على صدورهم وثيابهم، ويحفرونه في بعض الأحيان على أدواتهم. وقد لاقى هذا الشكل الهندسيّ، الناتج عن تقاطع خطّين مستقيمين تقاطعًا عموديًّا، رواجًا واسع الانتشار في العالم المسيحيّ، وظهرت له أنماط لها مدلولات لا تُعَدّ ولا تُحصى. فبه تميّزت الجماعات الرهبانيّة بعضها عن بعض، وكذلك المنظّمات المسيحيّة والجمعيّات. وفي العالم السياسيّ، وضع الملوك المسيحيّون والأحزاب صلبانهم على راياتهم، مع أنّ سلوكهم في بعض الأحيان يُخالف تعاليم الإيمان المسيحيّ مخالفة جذريّة. فما هي علاقة المسيحيّة بالصليب؟

يروي لنا التاريخ أنّ الحاكم الرومانيّ بنطيوس بيلاطس صلب، أمام أحد أبواب أورشليم، يهوديًّا جليليًّا من الناصرة اسمه يسوع. إنّها ليست أوّل مرّة تصلب فيها السلطات الرومانيّة رجلًا حُكِمَ عليه بالإعدام، خصوصًا في اليهوديّة، أكثر الأقاليم اضطرابًا في تلك الأيّام. لكنّ ذكرى

(*) كلّيّة الفلسفة واللاهوت اليسوعيّة - باريس.

المصلوبين زالت بعد مدّة، على خلاف ذكرى ذلك الجليليّ. فقد كان نبيًّا على ما يبدو، وبعد موته، بشّر تلاميذه به في جميع أنحاء المعمورة، وأعلنوا أنّه المسيح ابن الله. وسُمّي الذين سمعوا تعاليمهم واعتنقوها مسيحيّين. وازداد عدد هؤلاء، وانتشروا في جميع أقطار العالم، وكان لهم دور فعّال في مسيرة التاريخ.

إرتبطت المسيحيّة منذ بدايتها ارتباطًا وثيقًا بصلب المؤسّس. فهو في نظرهم حدث مركزيّ. واعتبر بعضهم أنّ حياة الناصريّ تفقد معناها بدون الصليب. وبالغ آخرون في الكلام فأعلنوا أنّ ابن الله تجسّد لكي يُصلب. وأكّدت تيّارات تقويّة أنّ ما من إنسان في تاريخ العالم، ماضيه وحاضره، تألّم جسديًّا أكثر ممّا تألّم يسوع على الصليب. فهل ما يقوله هؤلاء صحيح؟ ما هي قصّة الصلب وتاريخه؟ ولماذا وصف القدّيس بولس صلب المسيح بأنّه «عار وجنون» (١ قور ١: ١٨-٢٣)؟ ولماذا انتظر المسيحيّون ثلاثة قرون ليجعلوا الصليب شعارًا لهم؟

تاريخ الصلب

يقرّ علماء التاريخ اليوم بأنّ الصلب اختراع فارسيّ. لكنّهم يجهلون تاريخ ظهوره وزمن انتشاره بين الحضارات الأخرى. كان الصليب في البداية قائمًا عموديًّا كجذع الشجرة. وقد ورد ذكره في سفر تثنية الاشتراع بالعهد القديم (تث ٢١: ٢٣)، وترجمه القدّيس هِيرُونيمُس بكلمة صليب Crux. واحتفظت اللغة اليونانيّة بكلمة قائم Stauros لتشير بها إلى الصليب. وأضيف في ما بعد إلى القائم الشاقوليّ آخرُ أفقيّ أو عارضة، وصار يُثبَّت المحكوم عليهم إليها بواسطة المسامير أو الحبال، ويُتركون على هذا النحو حتّى يموتون. كان الصليب منخفضًا، ولا يُصلب عاليًا إلاّ مرتكبو الجرائم الفظيعة ليكونوا عبرة لمَن يعتبر.

إختلفت أشكال الصلبان كثيرًا: فهناك الصليب ذو الأطراف الثلاثة Crux commissa الذي يشبه الحرف T اليونانيّ، والصليب ذو الأطراف

الأربعة الذي سُمّي Immissa أو Capitata حيث يعلو طرف القائم العموديّ العارضة الأفقيّة[1]، وهو شكل صليب المسيح كما ورد في تقليد الكنيسة، وعلى الجزء العلويّ البارز علّق الجنود سبب الإعدام (متّى ٢٧: ٣٧). ويقول القدّيس إيريناوس إنّ صليب المسيح له أربعة أطراف: إثنان في الطول وإثنان في العرض. ويُضيف أنّ هناك أيضًا طرفًا خامسًا لقطعة خشبيّة جلس المخلّص عليها[2]. وهي وضعيّة ضروريّة لكي لا يُمزّق ثقلُ الجسم اليدين المسمّرتين على عارضة الصليب الأفقيّة، ولكي يتمكّن المحكوم عليه من التوازن.

بالإضافة إلى تنوّع أشكال الصليب، اختلفت طرق الصلب لا من مدينة إلى أخرى وحسب، بل من إعدام إلى آخر. ممّا يجعل عمليّة التصنيف أمرًا مستحيلًا. ومع ذلك، ميّز هيرودوتس Hérodote نوعين من الصلب. فاستعمل للأوّل فعل Anaskolopizein ليشير إلى صلب الإنسان حيًّا، وللثاني فعل Anastauroun ليشير إلى تعليق جثّة قتيل على الصليب. في كلتا الحالتين، تبقى الغاية نفسها: أن تنال الضحيّة أشدّ أنواع الإهانة. لذلك تُثبَّت على الصليب بالمسامير أو الحبال، وتُترك لتموت ببطء إن كانت حيّة، أو تُقدّم طعامًا للطيور إن كانت ميّتة. وقد أرهبت هذه الطريقة في الإعدام القدماء فامتنعوا عن الكلام عليها بالتفصيل، ممّا يصعّب علينا معرفة طرق الصلب. فقد وصف هيرودوتس موت پوليقراطس الساموزي Polycrate de Samos وقال: «قُتل بطريقة لا يمكن قولها، وثُبّتت جثّته على خشبة»[3]. ويصف في مكان آخر، وبتفصيل أكثر، إعدام كسانثيپ Xanthippe القائد الأثينيّ، الذي اتُّهم بتدنيس المقدّسات. فيقول: «سمّروه على ألواح خشبيّة وعلّقوه، ورجموا ابنه أمام عينيه»[4].

بعد هيرودوتس، صارت الكلمتان Anaskolopizein و(Ana)stauroun

(١) H. Marruchi, *Dictionnaire de la Bible*, t. II, col. 1128.
(٢) *Ibid*, t. II, col. 1130.
(٣) Hérodote, *Histoire*, 3, 125,3.
(٤) *Ibid*, 9, 120,4.

مترادفتين، وزال التمييز بين الصلب وعرض الجثّة على قائم خشبيّ. وظلّت طريقة الإعدام متنوّعة، لأنّ من حقّ الجلاّدين تعذيب الضحيّة بوحشيّة كما يحلو لهم. فالفيلسوف سينيكا Sénèque الرواقيّ يعطينا عن ذلك شهادة قيّمة: «أرى أمامي صلبانًا ليست متشابهة بل تختلف بحسب صانعها: فهناك مَن يدلّون رؤوس ضحاياهم إلى أسفل، وآخرون يخوزقونهم، وآخرون يمدّون أذرعهم على عارضة»[٥]. ويتفادى المؤرّخ اليهوديّ فلافيوس يوسف Flavius Josèphe وصف الصلب حين يذكر مصير اليهود الذين حاولوا الفرار من أورشليم المحاصرة في السنة ٧٠ ميلاديّة فيقول:

«أُلقي القبض على يهوديّ في أثناء غارة، فصلبه طيطس مواجهًا للسور، لأنّ الآخرين سيفزعون من هذا المنظر... وحين كانوا (اليهود) على وشك السقوط (في أيدي الرومان)، كانوا يُجبَرون على الدفاع عن أنفسهم. وبعد المعركة يفوت أوان طلب العفو، فيُجلدون، ويخضعون قبل الموت إلى جميع أنواع التعذيب، ثمّ يُصلَبون مواجهةً للسور. لا شكّ أنّ آلامهم أثارت الشفقة في نفس طيطس. ولكن: بما أنّ عددهم - وقد بلغ حتّى الخمس مئة في كلّ يوم - كان كبيرًا جدًّا، ومن الخطر إطلاق سراحهم أو الاحتفاظ بهم، ترك جنوده يتصرّفون كما يشاؤون، خصوصًا وأنّه أمِل بأنّ مشهد الصلبان الرهيب سيحثّ المحاصرين على الاستسلام. وجعل الجنود يهينون الأسرى من شدّة غضبهم وحقدهم، فيصلبون كلّ واحد في وضعيّة مختلفة. وبسبب العدد الكبير، لم يبقَ أماكن للصلبان، ولا صلبان للأجساد»[٦].

الصليب في حوار الفلاسفة

أثارت طريقة الإعدام بالصلب جدلًا كبيرًا بين الفلاسفة. فحين تكلّم

(٥) *Dialogue*, 6 (De consolatione ad Marciam), 20,3.

(٦) Flavius Josèphe, *De Bello Judaico*, 3, 321, & 5, 449-451.

أفلاطون على سقراط، وضع على لسان بولُس Polos وصفًا مفصّلًا للتعذيب قبل الصلب، لكي ينقد رأي سقراط الذي يعتبر الحاكم الطاغي أشدّ بؤسًا من الذي يموت بالتعذيب:

«حين يتآمر إنسان بدون حقّ على طاغية، فيُلقى القبض عليه ويُسلّم للتعذيب، فتُبتر أطرافه، وتُحرق عيناه، ويتألّم من العذابات الشخصيّة الوحشيّة والمتنوّعة فيشهد إذلال أبنائه وزوجته،-وفي آخر الأمر يُصلب-أو يُدهن بالزفت ليُحرق حيًّا، أيكون هذا الرجل أسعد ممّا لو نجح في الفرار، وتسلّم السلطة وطغى، وأمضى حياته يحكم المدينة ويفعل فيها ما يشاء، ويحسده على ذلك المواطنون والغرباء الذين يهتفون لسعادته؟»[٧].

وسخر كثيرون من سقراط لأفكاره في هذا الموضوع. مَن يعتبر نفسه سعيدًا في هذه العذابات الرهيبة؟ ومَن يتمنّى طول الحياة مع هذه الآلام؟ هذا هو تفكير الرومانيّين. فالانتحار في نظرهم أمر بشع، لكنّه حكمة ونصيحة لمَن يريد تفادي الصليب. ولم يقبل ميسين Mécène بهذا الرأي، ورفض اعتبارَ الانتحار آخرَ ملجأ للحفاظ على الحرّيّة حين يتعرّض المرء إلى آلام لا فائدة منها. فسخر منه سينيكا وقال:

«أهناك إنسان يحبّ أن ينهار تحت وطأة العذابات، وتفنى أعضاؤه الواحد تلو الآخر، وتُهدَر حياته قطرةً قطرة، بدل أن تتلاشى دفعة واحدة؟ مَن الذي يُعلّق على المشنقة الملعونة، وقد أُعيق وشوّه وتحوّل كتفاه وصدره إلى حدبتين بشعتين، ويكون لديه ألف سبب للموت حتّى قبل الصليب، ويتمنّى أن يمدّ وجوده الذي سيطيل من آلامه؟»[٨].

تبيّن لنا هذه النصوص وسواها أنّ الصلب موت رهيب لأنّه بطيء، ولأنّ سلسلة طويلة من العذابات تسبقه. ومع ذلك، فإنّ للتعذيب بعدًا إيجابيًّا. فهو يرهق جسد الضحيّة، ويفقدها في بعض الأحيان دمًا كثيرًا، خصوصًا في الجلد. وأخيرًا، بما أنّ المحكوم عليه يحمل غالبًا صليبه إلى

---

(٧) *Gorias*, 474 bc.

(٨) *Dialogue*, 3 (De ira I), 2, 2.

مكان الإعدام، فإنّه يصل منهكًا، ويموت سريعًا.

الجدال حول الصلب

وصف شيشرون الصلب على أنّه ذروة التعذيب Summum supplicium. ووضعه يوليوس برلس Julius Paulus - القرن الثالث قبل الميلاد - في أوّل قائمة العذابات، يتبعه الحرق ثمّ قطع الرأس. وكان يُستعاض في بعض الأحيان عن قطع الرأس بالرمي إلى الوحوش، إذا تمّ الإعدام في زمن أعياد الترفيه، وفي مدينة تحوي حلبة وجميع التجهيزات الضروريّة لذلك. ويتمّ الإعدام عادة أمام الشعب، لأنّه مشهد يسلّي الناس على الرغم من بشاعته. ويُقال إنّ في عهد الإمبراطور كاليغولا Caligula (٣٧-٤١ ميلاديّة)، تناولت مسرحيّات كثيرة موضوع الإعدام. وفي عهد دوميتيانوس Domitien، كان يقوم بدور الضحيّة مجرم حقيقيّ. فقد مثّل لوريولُس Laureolus، وهو رئيس عصابة وعبد فارّ، مسرحيّة موته، وصُلب في آخرها، ومَزّق دبٌّ إسكوتلنديّ جسده[٩].

كانت مشاعر الرومانيّين تختلط أمام الصليب بعضها ببعض: عنف وقرف ورهبة وتسلية. ولم تصلب السلطات الرومانيّة الناس عشوائيًّا، لكنّ عدد المصلوبين في كلّ سنة كان كبيرًا جدًّا. ولم يحتجّ الشعب على بشاعة هذه الطريقة في الإعدام، لأنّها في نظرهم تردع عن مخالفة القانون، وتُرضي في بعض الأحيان أهالي ضحايا المجرم المحكوم عليه. ووصف شيشرون الصلب بـ «الطاعون»، واعترض مرّتين على صلب مواطنين رومانيّين، لكنّه انتقد فيرّيس Verrès لأنّه أعاد عددًا كبيرًا من العبيد المتّهمين بالمؤامرة إلى أسيادهم بدل أن يصلبهم. وقال في هذا الشأن: «هؤلاء العبيد الذين سُلّموا ليُعذّبوا وفقًا لعادة الأجداد، تجرّأت على انتزاعهم من براثن الموت وإطلاق سراحهم. لا بدّ أنّك فعلت ذلك لتخصّص للمواطنين الرومانيّين، الذين عوقبوا بدون محاكمة، الصلبان

(٩) Martial, *Liber spectaculorum*, 7.

التي نصبتها للعبيد المحكوم عليهم»[١٠]. وليس موقف سينيكا الرواقيّ أفضل من شيشرون. فهو يقول إنّ الصليب أسوأ أنواع التعذيب. لكنّه يعتبر صلب المجرمين أمرًا طبيعيًّا: «وحتّى حين يجب مدح الدولة التي لا يُعاقَب الناس فيها إلاّ نادرًا، علينا ألاّ نتخلّى نهائيًّا عن العقوبات القاسية»[١١].

الصلب في القوانين الرومانيّة

لا تعاقب القوانين الرومانيّة بالصلب إلاّ العبيد والغرباء. ولا يستوجب المواطنون الرومانيّون هذا العقاب إلاّ في حالات معيّنة: الجرائم الكبيرة في السرقة وقطع الطرق، أو الخيانة العظمى. ففي هاتين الحالتين، يفقد المواطن حقوقه المدنيّة، وبالتالي الحماية التي يتمتّع بها، فيصير عرضة لأسوأ أنواع الإهانة أي الصليب. يقول شيشرون في هذا الشأن: «لو هدّدونا بالموت، فَلْنَمُتْ أحرارًا على الأقلّ. أجل، فليبتعد الجلاّد والحِجاب على الرأس وحتّى ذكرُ الصليب، لا عن الرومانيّين وحسب، بل عن أفكارهم وعيونهم وآذانهم. لأنّ في هذه العذابات، ليست مسألة الإعدام هي التي لا تليق بمواطن رومانيّ وبإنسان حرّ، بل طبيعتها والانتظار فيها وحتّى اسمها»[١٢].

تُظهر لنا أحكام يوليوس بولس Julius Paulus تطوّر قوانين الإمبراطوريّة. فقائمة الجرائم التي تستوجب العقوبة القصوى تطوّرت، وصار يُعاقب بالصلب الفرارُ أمام العدوّ، الخيانة بإفشاء أسرار الدولة، التحريض على الثورة، القتل، السحر، تزوير وصيّة مهمّة... ولم يُحكم بالصلب إلاّ أبناء الطبقة السفلى، إذ يمكن لأبناء الطبقة العليا أن يطلبوا طرقًا في الإعدام أكثر إنسانيّة. ومع ذلك، ظلّ الصلب وسيلةً إعدام العبيد، حتّى إنّ القدماء تعوّدوا أن يكتبوا عبارة: «عذاب العبد» «Servile

---

(١٠) *In Verrem* II, 5, 162.

(١١) *Dialogue, 5, (De clementia), 1, 23.*

(١٢) Cicéron, *Pro Rabirio*, chap. 16.

supplicium»، حين يتكلّمون على صلب مواطن حرّ. وهذا يكفي لجعل الصليب أداة عار. فالعبد ليس إنسانًا فَقَدَ حرّيّته، بل أداة يتسلّى بها السيّد كما يحلو له. وكان الصليب كابوس العبيد اليوميّ لأنّ من حقّ أسيادهم أن يصلبوهم لأتفه الأسباب وبدون محاكمة. لهذا سمّى بعضُهم العبيد: «القابلين الصلب Cruciarii». يُضاف إلى ذلك أنّه كان يُصلب عبيد السيّد الّذي يُغتال ولا يُعرف قاتله.

صلب المسيح عار وجنون

رأينا أعلاه كيف كان اليهود والوثنيّون يعتبرون الصلب أكثر طرق الإعدام إهانة، وكيف كان يثير في نفوسهم شعورًا بالنفور والقرف والخوف. وقد شعر تلاميذ يسوع بذلك حين صُلب معلّمهم، فحزنوا وخافوا واختبأوا خجلًا، لأنّ ابن داود، مسيح الله، المحرِّر الذي دخل أورشليم بعظمة منذ بضعة أيّام، صُلب أمام عيون الجميع صلبَ المجرم أو الخائن أو العبد. لقد ترك الله قدّيسه يُسمَّر إلى خشبة على هضبة الجلجثة، بينما كان أتباعه يأملون أن «يحرِّر إسرائيل» (لوقا ٢٤: ٢١). لم يكن موتُ الأبطال أو القرّاد أمرًا غريبًا في ذلك الوقت: فأخيليوس وسقراط ورومولوس وشمشوم وغيرهم قُتلوا، وتوارثت الأجيال سِيَرهم وررتها بطريقة ملحميّة. لكنّ هؤلاء ماتوا ميتة بطوليّة، ولم يخضع أيّ منهم لذلّ الصلب. وهنا تكمن عثرة الصليب، التي لم تستطع ظهورات المسيح القائم من بين الأموات أن تزيلها. لكنّ الأمور تغيّرت بعد العنصرة. فقد أنيرت العقول، وصارت ترى في موت يسوع معنى آخر. لذلك أعلن القدّيس بطرس للجمع أنّ الربّ لم يترك ابنه، بل «جعل يسوع الذي صلبتموه سيّدًا ومسيحًا» (أعمال الرسل ٢: ٣٦). ويُضيف القدّيس بولس إلى ذلك فيقول إنّ مأساة الصلب ليست حدثًا محزنًا بل عملًا خلاصيًّا: «لأنّ الذين يَتْبَلون المسيح يسوع يَصلبون الجسد مع شهواته» (غلاطية ٥: ٢٤). ومع ذلك، لم ينسَ رسول الأمم أنّ الصليب «عارٌ لليهود وجنون للوثنيّين» (١ قور ١: ٢٣).

ودافع آباء الكنيسة طوال ثلاثة قرون على الأقلّ عن صلب المسيح في جدالاتهم مع اليهود والوثنيّين، وفي بعض الأحيان مع المسيحيّين أنفسهم. ففي القرن الثاني مثلًا، علّم بازيليديوس Basilide عقيدته في الأيونات éons بالإسكندريّة. وهي تنصّ على أنّ يسوع لا يساوي الله لأنّه أيون من العالم الوسيط بين الألوهيّة والبشريّة، نزل من كولاكو Caulacau، إحدى السموات الـ ٣٦٥ الكونيّة، وولد من العذراء مريم، ونال في أثناء معموديّته نور الإنجيل الذي يخلّص. وبفضل هذا النور أعلن المعرفة وأعاد نظام بداية الخليقة. فالفداء يتمّ إذًا بمعرفة الوحي الإلهيّ معرفةً داخليّة. وفي الطريق إلى الجلجثة، خرج يسوع عن جسده الشبحيّ وألقى شكله على سمعان القيرينيّ الذي ساعده في حمل صليبه. وعادت كلمة الله إلى السماء، وصُلب سمعان مكانها[١٣]. فالغنوصيّون البازيليديّون لا يقبلون بأنّ اليهود صلبوا كلمة الله المتجسّد، ويقولون إنّه شُبّه لهم ذلك.

الصليب والصلب قبل الملك قسطنطين

إستعمل المسيحيّون إشارة الصليب منذ القرن الأوّل الميلاديّ[١٤] ففي أحد النصوص القديمة لترتُليانُس نجد أنّه يوصي بها في كلّ زمان ومكان: «في جميع أعمالنا، حين ندخل أو نخرج، حينَ نلبس، أو نذهب إلى الحمّامات، أو نجلس إلى المائدة، أو نستلقي على السرير، أو نأخذ كرسيًّا أو مصباحًا، نرسم إشارة الصليب على جباهنا. لم تأمر الكتب المقدّسة بممارسة هذه العادة، لكنّ التقليد يعلّمها، والعادة تثبّتها، والإيمان يحفظها»[١٥]. لكنّ المسيحيّين لم يرسموا الصليب في لوحاتهم

---

(١٣) G. Bareille, *Dictionnaire de Théologie Catholique (D.T.C.)*, t. II, col. 471.

(١٤) نقصد بكلمة «إشارة الصليب» الحركة التي يقوم بها المسيحيّون في صلاتهم، فهم ينقلون يدهم من الجبين إلى الصدر ثمّ إلى الكتفين وهم يقولون: «باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين». وقد أضيفت العبارة الأخيرة، أي الإله الواحد، إلى إشارة الصليب في اللغة العربيّة لكي لا يظنّ المسلمون أنّ المسيحيّين مشركون.

(١٥) *De corona militis*, cité par H. Quilliet, *D.T.C.*, t. III, col. 2348.

ولم يمثّلوه في منقوشاتهم حتّى السلام القسطنطينيّ، لعدّة أسباب نذكر أهمّ ثلاثة منها:

١ - عندما احترقت روما في عهد نيرون في السنة ٦٤، اتُّهم المسيحيّون بإشعال الحريق، فلوحقوا واعتُقِلوا وحُكِم عليهم بأشدّ أنواع العذابات. لذلك خافوا وجعلوا يتوخّون الحذر ويعيشون خفية، ويمارسون إيمانهم سرًّا. وأدّت هذه الحياة الخفيّة إلى الإكثار من استعمال الرموز والإشارات التي لا يفهمها إلاّ المسيحيّون. فعلى سبيل المثال، انتشر في ذلك الوقت استخدام رمز السمكة كتابة ورسمًا[١٦]، وكذلك المرساة رمز الإيمان الثابت والرجاء وسط عواصف الحياة، والراعي والحمامة... (شكل ١ - أطلب آخر المقال).

٢ - ظلّ الصليب في فكر المسيحيّين أداة عار. فإيمانهم بإله مصلوب أثار سخريّة الوثنيّين. وخير دليل على ذلك كتابةٌ من القرن الثالث الميلاديّ معروفة باسم: «المصلوب ذو رأس الحمار» (شكل ٢)، اكتُشِفت في قصر البلاتين بإيطاليا، وفيها رسم لشخص له رأس حمار، معلّق على صليب بشكل حرف T، وينظر إلى شخص آخر بالقرب منه، يده اليمنى مرفوعة في وضعيّة التضرّع القديمة. وتحت الرسم عبارة: «ألِكسامِنوس يعبد إلهه ALEXAMENOC CEBE TE θEON»، واكتُشفت في القصر نفسه كتابة أُخرى: «ALEXAMENOC FIDELIS». ولمّا كانت كلمة FIDELIS لا تُقال إلاّ للمسيحيّين، تمّ الجزم على أنّ الرسم الأوّل يعني المسيحيّ لا اليهود ولا عبّاد الإله سيت المصريّ.

٣ - عُرِف شكل الصليب الهندسيّ قبل المسيحيّة. فنحن نجده في الحليّ والأقراط (شكل ٣) وحتّى في الأحرف الأبجديّة كما هو حال الكتابة الهيروغليفيّة. واستعمله الغنوصيّون في رموزهم الفلكيّة وكتاباتهم السحريّة (شكل ٤). وربّما استعمال الوثنيّين شكل الصليب الهندسيّ أعاق

---

(١٦) راجع مقالنا «رمز السمكة» عند المسيحيّين، المشرق، تمّوز ١٩٩٤، صفحة ٤٤٩-٤٦٨.

المسيحيّين في استخدامه رمزًا لهم، لكي يصونوا حديثي الإيمان من العودة إلى الوثنيّة.

الأصول الثلاثة

على الرغم من عدم استعمال الصليب رمزًا للمسيحيّين طوال القرون الثلاثة الأولى، نلاحظ في هذه المدّة وجود بذار ستعطي ثمرًا في عهد الملك قسطنطين، الذي أنهى اضطهاد الكنيسة. فبالاعتماد على التنقيبات الأثريّة يمكننا تمييز ثلاثة أصول لرمز الصليب.

١ - حروف الاختصار Anagramas: ورد في قاموس العاديّات والليتورجيا المسيحيّة *Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie* أنّ المباني المسيحيّة الأولى حوت في بعض الأحيان الحرف X إشارة إلى الحرف الأوّل في اسم المسيح باليونانيّة Xristos، أو الحرفين X و I مدموجين (شكل ٥) وهما أوّل حرفي عبارة يسوع المسيح باليونانيّة Iesous Xristos. وفي بعض الأحيان أطيل الحرف I فأعطى شكلًا يشابه الصليب (شكل ٦). وكثيرًا ما نجد في آثار المسيحيّين صليبًا ينتج عن تطابق أوّل حرفين في اسم المسيح باليونانيّة وهما X P (شكل ٧)، سُمّي صليب القدّيس أندراوس، لأنّ التقليد يقول إنّ هذا القدّيس صُلب على هذا النحو. على كلّ حال، لم تُشر هذه الرموز في البداية إلى الصليب بل إلى المسيح نفسه.

٢ - الحرف T: وهو حرف يونانيّ يذكّر برايات الجيش وعلامات الانتصار. ورد في حديث يرقى صاحبه إلى القرن الثاني: «صليب الحرف T يعني النعمة»(١٧). وقد أشار عدد من آباء الكنيسة إلى العلاقة بين هذا الحرف وصليب يسوع. ونحن نجده بكثرة في دياميس القرن الثاني الميلاديّ (شكل ٨).

---

(١٧) P. Thoby, *Le crucifix des origines au Concile de Trente*, Bellanger, Nantes, 1959, p. 13.

٣ - المرساة: رمز مسيحيّ يعني الرجاء وثبات الإيمان في المحن. لقد تطوّر رسم المرساة المسيحيّ حتّى صارت في بداية القرن الثالث تشبه الصليب (شكل ٩). ووضع في بعض الأحيان سمكة عليها إشارة إلى الصلب على نا يدو (شكل ١٠).

نلاحظ من هذه الأصول الثلاثة أنّ الأشكال تشير أساسًا إلى المسيح. وإذا أثير موضوع الصليب عرضًا، فإنّه يخلو من مشاهد الألم والذلّ. وقد انتشر الصليب انتشارًا واسعًا بالأقاليم التي تمتّعت فيها المسيحيّة بالحرّيّة الكاملة. ففي أرمينيا، خرّب المسيحيّون هياكل الأوثان ونصبوا مكانها صلبانًا حجريّة ضخمة. أمّا المصلوب، فلا نجده ممثّلًا في القرون الثلاثة الأولى إلاّ على ثلاث قطع صغيرة.

أ - يَشَب أحمر صغير جدًّا اكتُشف في غزّة ويعود تاريخه إلى القرن الثاني أو الثالث الميلاديّ (شكل ١١). يمثّل النقش مصلوبًا عاريًا وبجانبه شخصان بوضعيّتين متشابهتين. ويقول الأستاذ لو بلان Le Blanc إنّ الرسم غنوصيّ بازيليديّ: بما أنّهم لا يؤمنون بصلب المسيح الكلمة، فإنّهم يصوّرون الصلب بدون حرج. لكنّ الأستاذ لوكلير Leclercq شكّك في صحّة هذه النظريّة[١٨]. من جهتنا، يمكننا أن نبدي ملاحظتين: أوّلًا، لا نستطيع أن نعرف هل المسيح مصلوب أو يفتح ذراعيه داعيًا الناس إليه، من أحياء - الشخص اللابس - وموتى - الشخص العاريّ -. ثانيًا، لم يوضع على هالة المسيح صليب إلاّ في زمن متأخّر، مما يجعلنا نشكّك في تأريخ القطعة.

ب - حجر عقيق من القرن الثاني أو الثالث اكتُشف في رومانيا (شكل ١٢). يمكن التعرّف إلى يسوع من كلمة IXΘYC المكتوبة بالعكس، ممّا يُشير إلى أنّ القطعة استُعملت ختمًا. المسيح عارٍ، وحجمه أكبر من الرسل الاثني عشر حوله. ذراعاه ممدودتان على الحرف I، ولا

(١٨) *Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne et de Liturgie (D.A.C.L.)*, t. III, col. 3049-50/

يحمل علامات الألم أو الإهانة. ويعبّر جسمه المشدود عن عظمة المخلّص.

جـ - حجر عقيق من القرن الثالث عليه رسم مشابه ونبه بعض الاختلاف (شكل ١٣). المسيح من حجم تلاميذه لكنّه أعلى منهم، ويتميّز عنهم بالهالة على رأسه، وفي الوسط عبارة يسوع المسيح EHCOC XPECTOC معكوسة. وحَمَلٌ في الأسفل يذكّر بالذبيحة.

نجد في هذه الأمثلة أنّ المصلوب صُوِّر في حالة المجد، بدون آثار للألم أو الإهانة. ويُشير قاموس العاديّات المسيحيّة إلى قطع أخرى تحمل رسوم صلبان، لكنّ أشكالها البسيطة وعدم تناسقها مع النقش يجعلنا نعتقد بأنّها أضيفت لاحقًا ولا يمكننا الاعتماد عليها في دراستنا.

السلام القسطنطينيّ

بدأ عهد السلام في كنيسة الإمبراطوريّة البيزنطيّة أيّامَ قسطنطين الملك. وقد حدث في ذلك الوقت ثلاثة أمور ساهمت في انتشار رسم الصليب، وجعلته رمزًا للمسيحيّين.

١ - في كتاب حياة قسطنطين *Vita Constantini* التي كتبها أوسابيوس Eusèbe في السنة ٣٤٠، نجد الرواية التالية: في ٣١٢ للميلاد، انطلق الإمبراطور إلى محاربة مكسانس Maxence وسأل الله النصر. وعند الغسق، ظهر فوق النجم الأوّل صليب من نور وعبارة: «بهذه العلامة تنتصر In Hoc Signo Vinces» فاستولى الدهش على قسطنطين وجنوده، لكنّهم لم يفهموا معنى ذلك. وفي الليل، ظهر المسيح للإمبراطور في الحلم مع العلامة نفسها، وأمره بأن يجعلها شعاره العسكريّ، وأن يحملها في معاركه فينال منها الحماية (شكل ١٤). وفي يوم ٢٧ تشرين الأوّل (أكتوبر) ٣١٢، انتصر قسطنطين على عدوّه ودخل روما ظافرًا. وأمر بأن يوضع الصليب في كلّ مكان، وتحته عبارة تذكّر الرومانيّين بأنّهم تحرّروا من نير الطغيان بهذه العلامة.

٢ - في ذلك الوقت أيضًا تمّ اكتشاف صليب يسوع في أورشليم. ويُقال إنّ هذا الاكتشاف تمّ بفضل الملكة هيلانة، أمّ قسطنطين، في أثناء حجّها إلى الأراضي المقدّسة. ولا ندري هل الاكتشاف وما يُروى عنه صحيح، لكنّ إكرام الصليب ظهر وبدأ يتشر في ذلك الوقت.

٣ - ألغى الأمبراطور قسطنطين الإعدام بالصلب، ولم يُعِده مَلِك آخر بعده. فنسيت الأجيال اللاحقة ما يعنيه الصلب من ذلّ وإهانة، ولم تحتفظ إلاّ بالسيرة الإنجيليّة. فلم يعد الصليب يعني إلاّ المسيح الذي مات لأجل خلاص البشر.

الصليب بعد الملك قسطنطين

يخبرنا أوسابيوس Eusèbe بأنّ قسطنطين أمر بعد الحلم بأن يُكتب اسم المسيح على الدروع والرايات. وتُبيّن الأبحاث الأثريّة أنّ قسطنطين استعمل الحرفين الأوّلين لكلمة يسوع اليونانيّة، وجعلهما متطابقين ليشكّلا ما سمّي صليب القدّيس أندراوس كما ذكرنا أعلاه. أمّا العبارة المرافقة فهي .I.H.S.V أي الأحرف الأولى لجملة: ««بهذه العلامة تنتصر In Hoc Signo Vinces. ووضع الحرف V تحت في الوسط، وعلا منتصف الحرف H صليب صغير، فصار الشكل بكامله صليبًا أيضًا. ومع الزمن، نسي الناس معنى هذا، وحسبوا أنّ الحرف V مسماران، فأضافوا ثالثًا وجعلوا يقولون إنّ معنى الحروف الثلاثة هو: «يسوع مخلّص الناس Jesus Hominum Salvator» (شكل ١٥).

تخلّصت المسيحيّة من وطأة الاضطهاد في عهد الإمبراطور قسطنطين، وصارت الكنائس والكاتدرائيّات تُشاد في كلّ مكان. وظهر الصليب في الفسيفساء والرسوم الجداريّة ليشير تارةً إلى النصر وتارةً أخرى إلى المسيح نفسه. وفي كنيسة بودانتيانا Pudentiana بروما فسيفساء من القرن الرابع يظهر فيها المسيح جالسًا على عرش إمبراطوريّ وبجواره كبار المدافعين عن الإيمان المسيحيّ. وفي الجزء العلويّ من اللوحة

صليب مرصّع يساوي طوله طول المسيح، يعلو هضبة تذكّرنا بالجلجثة أو جبل طابور، وتحيط به كائناتُ سفر الرؤيا: الملاك والأسد والثور والنسر، إشارة إلى الإنجيليّين الأربعة: متّى ومرقس ولوقا ويوحنّا. ونُقِش على كثير من القبور الحجريّة درب الصليب بطريقة تختلف عمّا تعوّدنا رؤيته في أيّامنا (شكل ١٦). فالمشهد اليمينيّ يصوّر المسيح واقفًا بوقار أمام بنطيوس بيلاطس، ويُشير إليه بيده كمَن له سلطان عليه، بينما يُدير الحاكم الرومانيّ رأسه خجلًا كالمتّهم أمام ديّانه. ويصوّر المشهد اليساريّ سمعان القيرينيّ يحمل صليب المسيح كما يحمل العسكريّ سلاحه، وجنديّ يضع على رأس يسوع إكليل غار لا إكليل شوك. وفي الوسط، بدل مشهد الصلب، نُقِش صليب فارغ يعلوه اختصار اسم المسيح، يحيط به إكليل من الغار يحمله نسران إمبراطوريّان. وتحت الصليب جنديّان واحد نائم والآخر دهش لما يراه. إنّ هذا المشهد يعبّر عن تقليد للجيش الرومانيّ. فمن عادة الجنود أن يضعوا نصبًا تذكاريًّا يعلّقون عليه أسلحة العدوّ في المكان الذي بدأ فيه يتقهقر. وقد احتفظت بعض الليتورجيات بهذه العادة، واستعملت صلبانًا عُلِّقت عليها أدوات تعذيب يسوع: السوط والحربة والمسامير... إنّ مشهد درب الصليب المنقوش على قبور القرن الرابع والخامس لا تروي سيرة الآلام بل مسيرة انتصار المسيح على الشرّ والموت.

نستنتج من هذه الآثار وغيرها أنّ المسيحيّين اعتبروا الصليب علامة انتصار. فصوّروه مرصّعًا، خاليًا من المصلوب، ووضعوه في بعض الأحيان مكان المسيح، وأحاطوه بالعظمة والجلال. لذلك نراه تارة على عرش، وتارة وسط السحاب، نرافقه في بعض الأحيان عبارة IXΘYC أو حرفي Ω Α أي الألف والياء، كما ورد في سفر الرؤيا (١: ٨).

المصلوب

عارض المسيحيّون في الشرق والغرب رسم يسوع مصلوبًا معارضة شديدة. ودام ذلك حتّى أيّام محنة تحطيم الأيقونات. ففي القرن السابع

أعلن سيرينوس Sérénus أسقف مرسيليا: «إنّ رسم الصلب إهانة للآلام وتهكّم على موت المسيح». وانتقد الذين يكرّمون صور الصلب، واتّهمهم بأنّهم ينكرون القيامة ولا يرون المخلّص إلاّ في «آلامه وموته في لحظة عذاباته». وقد رأينا كيف مثّل القدماء درب الصليب على القبور الحجريّة، وكيف نقشوا صليب النصر مكان مشهد الصلب. لهذا، فإنّ المباني التي تحمل صورة المصلوب-نادرة جدًّا في القرون المسيحيّة الستّة الأولى.

إنّ أوّل تمثيل للصلب يعود تاريخه إلى القرن الخامس الميلاديّ. وهو نقش على الباب الخشبيّ في كنيسة القدّيسة سابين (شكل ١٧). وإذا أمعنّا النظر في المصلوب، لا نلاحظ علامات الألم بادية عليه. إنّه انتصار الحياة على الموت. فالجسد منتصب والعينان مفتوحتان، وحجم جسمه أكبر من حجم اللصّين المصلوبين معه، إشارة إلى التسلسل في الأهمّيّة. وهناك نقش آخر من تلك المدّة موجود على علبة عاجيّة (شكل ١٨)، نرى فيه عيني يسوع مفتوحتين، ورأسه مرفوع، ولا أثر للذلّ أو الألم. وبدلَ الجنديّ الرومانيّ رُسم يهوديّ في يده حربة، لأنّ المسيح صُلب بسبب اليهود. ونجد في يسار الصورة يهوذا مشنوقًا وحده، لا أحد يعيره اهتمامًا، عيناه مغلقتان وكيس النقود الذي أخذه لقاء خيانته مقلوب. لقد أراد موت معلّمه فمات هو.

من جميع هذه الأمثلة نستنتج أنّ الصليب دلّ في بداية استعماله إلى النصر. وهذا ما يبدو من الرسوم والمنحوتات، حيث يشغل المكانة المرموقة، أو من تمثيل المصلوب منتصرًا وهو على الصليب. والسبب في ذلك هو أنّ ثقافة العصر كانت ذات طابع عسكريّ. ففي المعركة لا يهتمّ الناس إلاّ بالنتيجة، ولا يكترثون لعدد الضحايا.

الخاتمة

لا بدّ لنا من التساؤل بعد هذا العرض السريع لتاريخ الصليب والصلب: متى ظهرت صور المصلوب وهو في ذروة الألم؟ وما سبب ظهورها؟

إذا تتبّعنا تاريخ الفنّ المسيحيّ نلاحظ أنّ أوّل تمثيل للمسيح المتألّم تمّ في القرن التاسع. لكنّ السكينة ظلّت بادية عليه، وعضلات بطنه تُشير إلى جبروته. واستبدل الوشاح الليتورجيّ بثوب بسيط. وشيئًا فشيئًا، بدأ رأس يسوع ينحني، وجسمه يسقط إلى الأسفل ويأخذ شكل حرف S. ولم يوضع إكليل الشوك عل رأسه إلاّ في القرن الثالث عشر، بتأثير من الروحانيّة الفرنسيسيّة التي تميل إلى تأمّل آلام المخلّص. وفي القرنين الرابع والخامس عشر، بالغ الفنّانون في إظهار العذابات والألم. وصار المصلوب يحمل علامات كوارث الزمن، فنرى جسمه مغطّى بقروح الطاعون، أو بطعنات الحروب، أو بآثار الأوبئة التي أودت بحياة الناس. وفي نهاية القرن الخامس عشر، ظهرت صور التنزيل عن الصليب، والجلد، والثالوث إذ يحمل الآب ابنه ميتًا، وزال موضوع المسيح القائم المنتصر على الموت.

وفي القرن السابع عشر، عادت صورة المصلوب الشديد البنية إلى الظهور، لكنّها سرعان ما اختفت في القرن الثامن عشر وحلّت مكانها تعابير الذلّ والألم، التي بلغت أوجها في القرن التاسع عشر. ولا نستطيع أن نقول شيئًا عن القرن العشرين، لأنّنا لا زلنا نعيش فيه، ولأنّ تطوّر الفنّ يتمّ بسرعة كبيرة جدًّا، فتتنوّع أنماط الرسوم والمنحوتات، وتعسر عمليّة حصرها.

شكل (١)

عقيق (القرن الثاني) مساحته ١
يحوي أهمّ سبعة رموز في العصر
حيّ الأوّل: المرساة، السمكة،
، الحمام، الراعي، الحرف T،
.

Abbé Martigny, *Dictionnaire d'*
éologie Chrétienne, p. 751

شكل (٢)

رسم ساخر من قصر البلاتينو (القرن الثالث)

D.A.C.L, t III, col. 3051

شكل (٣)

آشور ناصربال، الملك الآشوريّ، يلبس عقدًا إحدى جواهره على شكل صليب.

Dictionnaire de la Bible, t. I, col 1137

شكل (١٢)
حجر عقيق (القرن الثاني؟)
D.A.C.L., t III, col. 3050

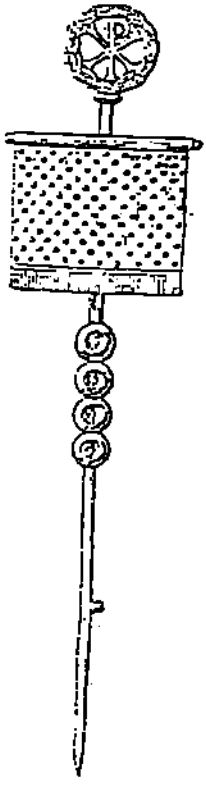

شكل (١٤)
راية عسكرية أيام قسطنطين.
D.A.C.L., t. VIII, col. 953

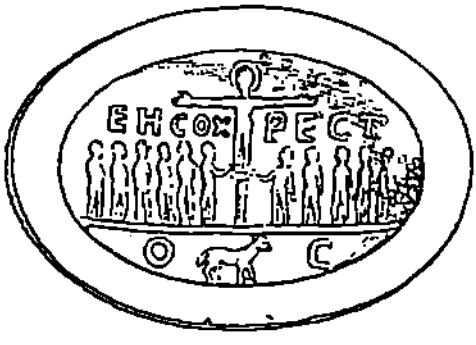

شكل (١٣)
حجر عقيق (القرن الثالث)
D.A.C.L., t. III, col. 3050

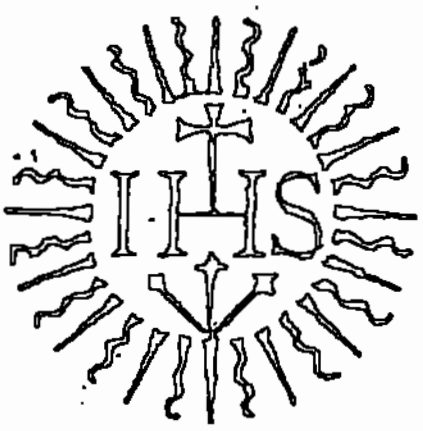

شكل (١٥)

عبارة الملك قسطنطين المختصرة كما هي في أيامنا.

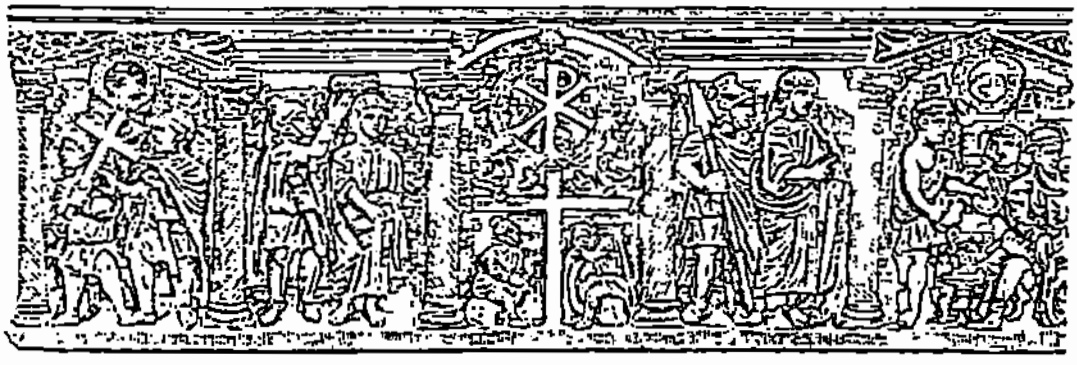

شكل (١٦)

درب الصليب منقوش على تابوت حجري.

D.A.C.L., t. VIII, col. 957

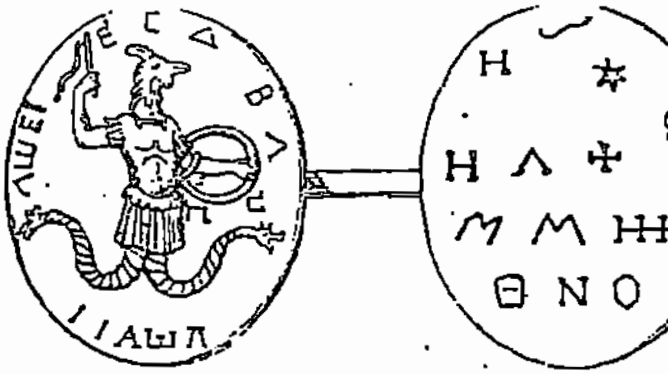

شكل (٤)

ذات رأس ديك. تبدو علامة الصليب واضحة في الكتابة السحرية.

Abbé Martigny, *Dictionnaire d'Archéologie Chrétienne*, P. 7

شكل (٥)

صليب يونانيّ نجميّ (القرن الرا
«تسالونيقيا».

ctionnaire des Symboles, p.

)

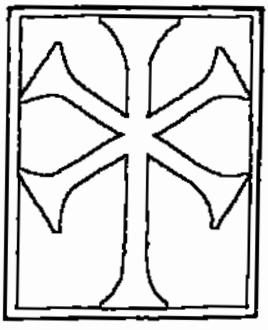

شكل (٦)

ف X و I بشكل صليب (القرن
ابع) «تسالونيقيا».

Dictionnaire des Symboles,
321

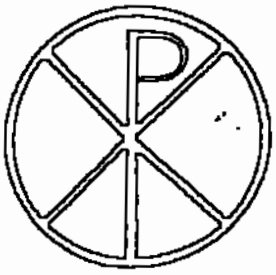

شكل (٧)

أوّل حرفين من اسم المسيح Xو P
(القرن الثاني).

Dictionnaire des Symboles, p.
321

شكل (٨)

شواهد قبور من القرنين الثاني والثالث يبرز فيها الحرف T.

I.C.L., col. 3053

شكل (١٠)

عقيق أحمر مساحته ٢ سم٢. وُضِعَ على المرساة صليبيّة الشكل سمكة.

D.A.C.L., t. I, col. 210

شكل (١١)

يَشَب أحمر وُجد في غزة

(القرن الثاني أو الثالث)

D.A.C.L., t III, col. 3049

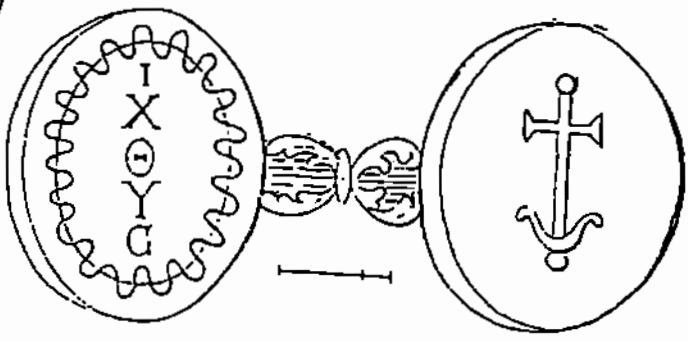

شكل (٩)

حجر عقيق مساحته ٢ سم٢ يظهر عليه اسم السمكة والمرساة صليبيّة الشكل.

(القرن الثالث)

D.A.C.L., t. III, col. 3053

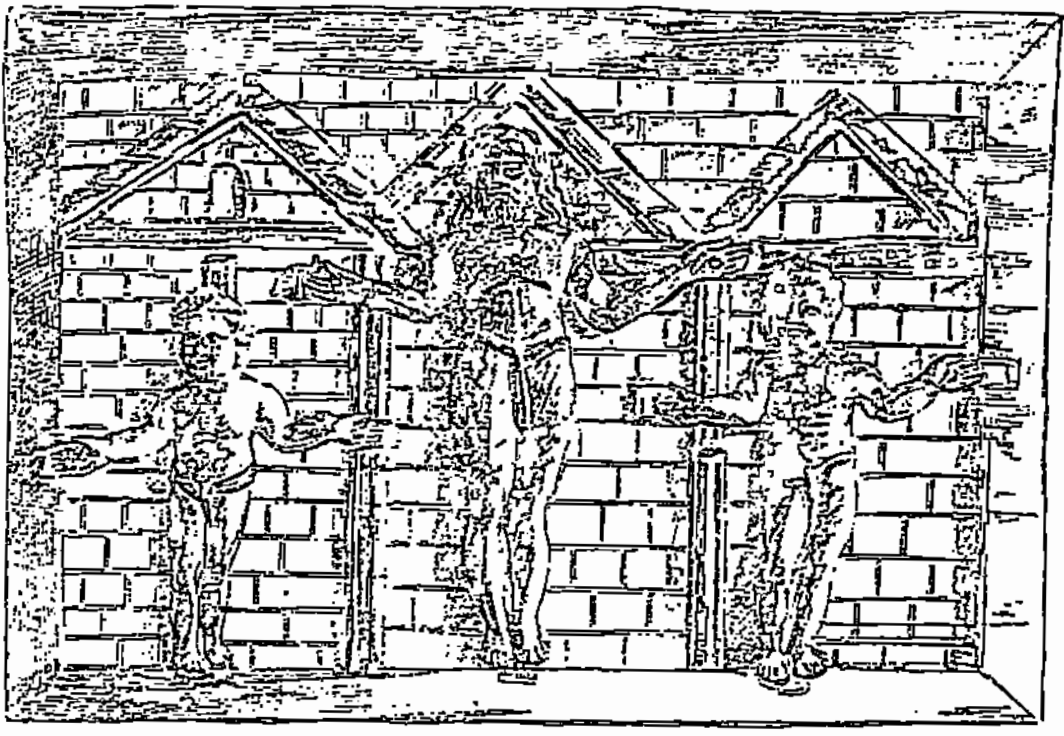

شكل (١٧)

مشهد الصلب منحوت على باب خشبي

D.A.C.L., t III, col. 3062

شكل (١٨)

موت يهوذا وموت المسيح. عاج من القرن الخامس.

D.A.C.L., t. III, col. 1133

صدر حديثًا عن دار المشرق